السخرية الرفيعة في النصوص التفاعلية الرقمية
قراءة في الأدبيات الساخرة في الفيسبوك

د. هاجر مدقن[1]

[1] كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر.hadjermeda@gmail.com

الاستلام	٢٠١٦/٥/١٦	المراجعة	٢٠١٦/٨/٢٤	النشر	٢٠١٦/١٢/٣٠

ملخص:

التفاعلية الرقمية، النصوص الرقمية، التفاعل النصي الرقمي، تسميات، بل مصطلحات فرضها واقع التكنولوجيا الرقمية التي صارت مشاعا متداولا اكتسح ساحة التواصل على أصعدته المختلفة والمتنوعة، وصار آلة الإرسال والتلقي الاجتماعيين خاصة، فحققا وعيا شبه مشترك بأوجه من الواقع المعيش، والهم المشترك، لم يُفعِّل فعل الاحتجاج والاستنكار وربما التأييد والمسايرة فقط، بل أوجد لنفسه صيغ نصية قفزت على المعتاد؛ ليس في موضوعاتها بل في شكل توجيهها، والأهم منه شكل تلقيها.

وكان لفعل السخرية والسخرية السياسية- الاجتماعية حظ وافر طوَّع اللغة والصورة، ليصيرا نصا مرسلا، يُقرأ بوجهه الحقيقي القريب الذي خلقه الموقف الأول، ويُقرأ بل يُتلقَّى من الفئة المقصودة بوجهه البعيد المُتأوَّل والمراد، الذي لن يتوقف في فعل تلقيه عند الفئة المقصودة وعيا وثقافة، بل سيعمل شيئا فشيئا على حشد فئات سيتسع وعيها ويتكيف مع هذا النوع من الخطابات الجديدة، وهو ما حققه موقع التواصل الاجتماعي (**الفيسبوك**)، فاستغل إلى حد بعيد سلطة النص وفاعلية الصورة في إعادة تشكيل الفعل الساخر إنتاجا وتلقيا، وطوَّعه ليتحول إلى **"سخرية رفيعة"** بعيدة التأثير بشكل ملموس وخطير لا يخطئه ملاحظ أو متتبع لواقع الفئات التواصلية الآن.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

High Irony in interactive digital texts. A reading in Facebook Irony literatures

Dr. Hadjer Medakene[1]

[1] College of Arts and Languages, Kasdi Merbah university of ouargla, Algeria. hadjermeda@gmail.com

Received	16/5/2016	Revised	24/8/2016	Published	30/12/2016

Abstract:

Digital Interactivity, digital text, hypertext are all names rather terms imposed by the digital technology use that has become commonly known in communication at large. Accordingly, it has become the means of social transmission and reception. They could to a certain extent achieve a conscience in some features of the commonly lived reality and the common concern to outcome not only the protestation but the affinity as well to find a way itself with extraordinary textual forms not merely in its content but in its method of address and more importantly method of reception.

The irony namely the social-political irony has a significant part in shaping the language and the picture to become an addressed text to be read as sent as the first attitude and then to be received by the targeted population with interpretations and wanted meaning. The impact of this text would not stop at the targeted population but would move ahead to others to enlarge its conscience and culture to adapt with this new form of discourses and this is exactly what has been achieved by Facebook for instance that exploited the power of the text and the efficiency of picture in reshaping the irony act in its production and reception to turn it into a "quality irony" of a far deep influence remarkably and dangerously not to be unnoticed by the onlookers of the communication parts now.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

- **مدخل:**

تعد السخرية خطابا ناقدا يختزن حمولات حجاجية مبنية على مناقضة الآراء والأفكار والوقائع والاحتجاج عليها، هذا الاحتجاج يتخذ صورا تعبيرية عدة تتيحها الوسائل والوسائط المستعملة في توصيله وإثارة ردود الأفعال؛ التي تستجيب - عادة- باستعمال السياق والصورة والشكل التواصلي نفسه.
إن الثقافة الإلكترونية بما أتاحته من وسائط تفاعليه وشبكات اجتماعية ، ومن بينها شبكة الفيسبوك Facebook، قد عززت ثقافة السخرية بألوانها المعرفية واللغوية واللهجية والثقافية على تنوعها، كما طرحت نمطا تعبيريا فرض باتساع تداوله بين مستعملي هذه الشبكة وغيرها واقعا لا يمكن تجاوزه أو التغاضي عنه.
وقد سجلت الأدبيات الساخرة؛ نكتا وأشعارا وأقولا حضورا متميزا غذى هذه الثقافة، إن لم تكن هي شريانها الحيوي الذي يبني بمكونيه (اللغة والصورة) صورة هذه النصوص على مستوى الإنتاج والتلقي. حيث هزت هذه الثنائية بشكل قوي مفهوم النص لا في حدوده المفاهيمية، ولا في نمطيات تشكله، بل تجاوزتها إلى مظاهر تلقيه وإعادة إنتاجه.

- **السخرية ثقافةً:**

لا تعتمد التواصلية بمختلف أشكالها وأنواعها ومضامينها على الفكرة تحديدا؛ بقدر ما تقع بكل ثقلها على الوسيط، ومفهوم الوسيط هنا يتخذ بعده الآلي الوسائلي، كما يظهر بعده الصيغي الذي يتلبس رداءً ثقافيا دارجا ومتداولا يعطي هذه التواصلية بعدها المأمول، وقد يطمح بها في جموح بعيد إلى أبعاد أخرى تتنامى داخل المحضن الثقافي للفكرة، وقد تفيض لتتكتل في وسائط وأفكار أخرى تتجاوز المدار الأول إلى مدارات أخرى.

يمكن لهذا الكلام أن يحاكي في شئ من الحقيقة والقرب المفهوم القريب والبعيد للسخرية، السخرية المتعددة، النابعة من عمق المعايشة، الرفض، الاستنكار، القبول، اللاموقف الذي يشكل موقفا بحد ذاته في تجليه الساخر، فـ"موريي" < يرى أن السخرية عامة وشاملة في الكون والحياة وفي النشاط الفني للإنسان؛ فكل ما يمزق الإنسان، وكل تناقضاته، ووعوده الصادقة غير الموفاة، ومثاليته المتضاربة مع سلوكه تكون مصدرا للسخرية: تكون سخرية تراجيدية عندما يتعذر إصلاح الأزمة، ودعابة عندما تكون العواقب قابلة للإصلاح أو الإهمال> [1] . إن هذا القول وإن كان خارجا من التعميم إلى التخصيص؛ تحديدا في الدور الفني للسخرية؛ إلا أنه يحمل معنى شموليا يعد الفن جزءا منه. وهذا الانتقال لا يفرزه دور السخرية وتمظهرها في حد ذاته، بقدر ما يعكسه المفهوم المضطرب لها كمفهوم مثلما عبَّر عنه " د. س. ميوك D.C.Mueke": < لأسباب مختلفة بقي مفهوم السخرية مفهوما غير مستقر؛ مطاط وغامض. فهو لا يعني اليوم ما كان يعنيه في القرون السالفة، ولا يعني نفس الشئ من بلد إلى بلد. وهو في الشارع غيره عند المؤرخ والناقد الأدبي. فيمكن أن يتفق ناقدان أدبيان اتفاقا كاملا في تقديرهما لعمل أدبي غير أن أحدهما قد يدعوه عملا ساخرا في حين يدعوه الثاني عملا "هجائيا"، أو حتى عملا "هزليا" أو"فكاهيا" أو"مفارقا" أو"حواريا" أو"غامضا" > . [2]

السخرية ثقافة وممارسة إنسانية تتبنى النقد قبولا ورفضا، تماهيا وانفصالا، رهبة ورغبة، قوة وضعفا. هي < خطاب نقدي يستهدف العيوب الاجتماعية والتجاوزات، وذلك بهدف تقويمها وإصلاحها وفق مرجعية قيمية متفق عليها اجتماعيا. ويستعمل هذا الخطاب الهزل والتهكم والفكاهة وغيرها؛ للسخرية من هدف معين يوجد خارج الخطاب >.[3]

ولأن السخرية هي موقف إزاء موقف، أو رأي في مقابل رأي آخر، ولأنها في أبسط حالاتها تشخيص وتصوير لوضع ما بشكل طريف ومضحك يحمل في أعطافه مرارة هذا الوضع وسلبيته - وربما غرابته إذا ما

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

تعرض لحالات يعتبر الاستغراب منها موقفا في حد ذاته- فإن النقد الساخر الذي تتشكل وفق إملاءاته يعدُّ الأكثر مرورا وتداولا وحشدا للآراء، وتوحيدا لها - غالبا- لمرونة طرائقه، وطرافة لغته حرفية كانت أو مصورة.

إن السخرية بوصفها معطى ثقافيا راسخا يعكس بشكل ما الوجه الإنساني للإنسان، جدارية لا تغيب عن أي مجتمع عبر التعاقب والتسلسل الزمنيين للشعوب، سجل ينحت بعمق تفاعل الفرد مع أناه ومع غيره، فيسخر من نفسه، ومن غيره، الغير المتمثل في الأفراد والمؤسسات، في الأشياء والأفكار، في كل ما يعاكس القناعات أو يتضارب معها أو يجاريها بسذاجة.

- **السخرية فى الفيسبوك:**

السخرية بوصفها واقعا نقديا قائما، بل متغلغلا في النسيج النفسي والفكري للإنسان، اتخذت لها أشكالا ووسائل تمر عبرها؛ إن بالمواجهة أو المواربة والتواري، إن بالرسم و النقش و النحت أو بالكتابة أو التمثيل، إن بتصدُّر صفحات الكتب والمطويات واللوحات والجداريات والتمثيليات والأشعار والأخبار والأمثال والقصص، أو من وراء الشاشات؛ شاشات الحواسيب، الوسائط اللامباشرة، الحائلة بين الساخر والمسخور منه، عبر الغمز بالأزرار، كتابة ومحوا، رسما وتشكيلا، عبثا وجدا، تصويبا وتنكيلا. إنها تلك الوسائط < التي تدلك حواسنا وتساهم في تشكيل نظرتنا للعالم. فالنظام الجديد للحياة والتفكير وفهم الواقع يتكون بفعل التأثير الخفي للوسائط التكنولوجية الجديدة. كل أفعال الإنسان المعاصر كالتواصل والتفاعل والفهم والتفسير والنقد والسخرية تتم عبر هذه الوسائط التي تحدد الطريقة والوسائل والشروط التي تجعل هذه الأفعال ممكنة بشكل معين ومختلف عن أفعالنا بوسائل أخرى. رافق هذا التغيير في الوسائط تغير في ثقافة الرؤية Visual Culture، حيث وفرت هذه الوسائط الظروف الملائمة لتموقع جديد للذات كفاعل وموضوع للرؤية >.[4]

إن التغير في ثقافة الرؤية بفعل هذه الوسائط الجديدة وتأثيره على تموقع الذات فاعلا وموضوعا للرؤية عموما، ليعدُّ الواقع الأكثر إثارة للجدل في السنوات الأخيرة، بل إنه مناط كثير من التنظيرات والبحوث الحالية، التي تسعى بشتى المناهج إلى الإحاطة بأبعاد هذا الواقع وتشخيص تأثيراته على الأنماط السابقة تجديدا وتثبيتا، وربما استئصالا وخلقا لأنماط مستحدثة تعد من ضرورات هذا التغير كاللغة والصورة.

إن ما طرأ على اللغة والصورة بوصفهما ظاهر الفكرة وجسمها التعبيري الذي تتبدى فيه ويتواصل بها عبره، يتطلب منا وقوفا طويلا نتجاوز به التأمل إلى التشريح والبحث ليس فقط في خلفياته وبواعثه، بل في ديناميكيته الحجاجية التي تمضي به سريعا إلى الفئات التواصلية التي تحتك به في مواقع التواصل الاجتماعية، ومن أهمها الفيسبوك، فبقدر ما يتخير الساخر لفكرته من وسائل توصيلية تجعلها تستقر في ذهن متلقيها – كيفما كان هذا التلقي- بقدر ما تحمل الوسيلة ذاتها حجتها أو حججها في ذاتها، إن كان على مستوى اللغة أو الصورة أو اللغة والصورة معا. وهنا نقرأ منطلق هذه السخرية- وهدفها، وطبيعة صانعها وثقافته ومواقفه، لنستنتج تلقائيا طبيعة متلقيها، والذي سيتفرَّد أو يتعدد انطلاقا من أحادية أو مجموع الرسائل المضمنة.

- **السخرية "الناقدة" في النصوص التفاعلية الرقمية بين اللغة والصورة:**

يحقق الفعل التواصلي الرقمي في مواقع التواصل الاجتماعي - والتي يعد (الفيسبوك) من أقوى ممثليها، على الأقل على صعيد المجتمعات العربية – انتشارا واسعا وحراكا تفاعليا تأثيريا لم تشهده هذه المجتمعات من قبل، إن كان من حيث الحصول على الأخبار ومواكبة الأحداث ومزامنتها، أو من حيث تحقيق ردات فعل آنية مؤيدة ومعارضة.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

إن الأفعال الناتجة عن شيوع هذه الأخبار والأحداث وطرح الآراء حولها، وإبداء المواقف المباشرة اتجاهها، إنما تكون عادة في الصورة نفسها التي يجئ عليها الفعل الأول المثير المحفّز؛ أي أن القول الكلامي ينتج قولا كلاميا، والصورة تنتج صورا، وهكذا. ويحدث أن يعمد قطاع من المتفاعلين أو التفاعليين الفيسبوكيين خاصة إلى ترجمة كل هذه الأقوال والسلوكات والصور وغيرها من المظاهر إلى ما يتناسب مع طبيعة تصورهم للموضوع والطريقة التي يجدون أنها تشكل استجابة حقيقية له، وهذه الاستجابة لا يسعى من خلالها إلى إرضاء نفسه فقط، بل وليحصد في كثير من الأحيان –والحال أنه في فضاء مفتوح يستقبل كل ما يلقى إليه- أكبر عدد من الاستجابات؛ أي ليحقق تفاعلا كاملا من متابعيه، أو ممن يشاركونه منشوراته وتعليقاته، وعموما انطباعاته وتصوراته؛ أي ما نستطيع أن نصطلح على تسميته بالجمهور.

لقد أتاح هذا الفضاء الرقمي التفاعلي شكلا من التفكير النقدي، خلقته مجموع المتغيرات التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية للمجتمعات. إن التفكير النقدي الحرّ الذي تتيحه حرية المكان، وخفاء المرسل، ومجهوليته، أو مساحة الحرية التي تتيحها طبيعة المجتمع وسلطاته وسياساته، كوَّن ما يسمى بـ: "الفعل الساخر"، أو "السخرية" التي جعلتها العوامل سابقة الذكر < نظيمة فكرية متناسقة ومستقرة الإيبستيم Episteme حسب تعبير فوك أو النموذج الفكري Paradigme حسب كوهن، تعكس العلاقات بين الخطابات والطرق الممكنة لتكون هذه الخطابات والمعرفة عموما في إطار شروط تاريخية معينة. قد تكون آلية تفكير ممكنة ومقبولة خلال فترة معينة من التاريخ، لكنها تصبح متجاوزة وغير مقبولة خلال فترة أخرى، وذلك تبعا للتحول في النموذج الفكري Paradigme Shift، وبالتالي في النظام الثقافي والاجتماعي والاقتصادي للمجتمع >.[5]

واعتمادا على مقبولية هذه الآلية وهذا الخطاب في وقت إنشائه، يُتخذ لغة للنقد، وآلية توجيه فكري لما يخلقه من وعي نقدي سريع، وإن كنا نتحفظ على عبارة "الوعي النقدي"، < فالتكنولوجيا ليست محايدة، بل حمالة قيم وقادرة على تغيير السلوك الاجتماعي والفكري نحو تقبل أكبر القيم ما بعد حداثية كالتعدد في المعنى والقيم والحقيقة عبر ثقافة التشارك والتفاعل التلقائي مع أفكار الآخر والقبول بالرأي المخالف>.[6] تعكس فكرة "محمد مفضل" البعد الإيجابي المتوقع من العملية التواصلية الحرة القائمة على مخاطبة القناعات بمجموع قيم قد تحملها على التغيير (تغيير السلوك، تقبل القيم، التشارك، التفاعل، القبول بالرأي والرأي الآخر)، وهو أثر نلمسه في شرائح اجتماعية كبيرة، خاصة في المجتمعات التي نؤمن سلفا بضرورة استقرار هذه المنظومة القيمية ضمن ركائزها الاجتماعية، ونشهد هذا كثيرا في المجتمعات الواعية التي توجه نفسها وتحشد مواطنيها على اختلاف الفئات والطبقات تحت سقف فكرة واحدة ومبدأ مشترك، فتصفق للرأي والخطاب الإيجابي وتؤيده، كتأييد شعب الأرجنتين لموقف رئيسة البلاد من إسرائيل والقضية الفلسطينية، وقد تثور على الأفكار الإقصائية المتشددة كمواقف بعض السياسيين ورؤساء الأحزاب الأوربيين من قضية استقبال اللاجئين السوريين في دولهم، وغيرها من المواقف.

وكلما اتسعت هوة الاختلاف، ولاقت مواقف السياسيين والخطابات السياسية رفضا واستهجانا من الجماهير والنخب، إلا وتجسد هذا الموقف المضاد في صورة ساخرة تتخذ أشكال تعبيرية متعددة، تعكس أبعاد ثقافية وأخلاقية واجتماعية كثيرة، فالسخرية < خطاب نقدي يستهدف العيوب الاجتماعية والتجاوزات، وذلك بهدف تقويمها وإصلاحها وفق مرجعية قيمية متفق عليها اجتماعيا. ويستعمل هذا الخطاب الهزل والتهكم والفكاهة وغيرها؛ للسخرية من هدف معين يوجد خارج الخطاب >.[7] لكن هذه السخرية نفسها، وأمام مواجهتها للاختلاف الذي لا يمثل الوجه السلبي أو المرفوض، تمارس نوعا آخر من ردات الفعل، وهو < الإقصاء والنقد والتهميش للآخر المختلف، وهي بذلك منخرطة بطبيعتها الخطابية في علاقات سلطة تحدد صيغ تداولها وآليات إنتاجها >.[8] هذا الكلام الأخير يضعنا وجها لوجه، لا مع طبيعة المواقف الخالقة لخطاب

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

السخرية فحسب، بل أمام طبيعة الخطاب الساخر ذاته، نحن أمام أشكال عديدة للتعبير حيث< نلاحظ في السخرية السياسية الفكرية المكتوبة أو المرسومة الاكتفاء بمؤشرات قليلة أو غير ملحوظة؛ إذ يترك قدر من الحرية للخيال، فهي تستهدف قراء خاصين متلافية الرقيب، ... وتكمن قوتها في التعامل مع القيم العليا التي لا يستطيع المستهدف التنكر لها علنا >.[9] قول كهذا يفتح أشكال الخطابات الساخرة على مصراعيه، فهي بين لغة مكتوبة؛ وهنا تحضر الأنواع اللغوية الساخرة، بين فصيحة وعامية، وبين صور مرسومة يستحضر منشئ الخطاب فيها كل فنون الخيال والبديهة لتحويل ما هو ذهني متصور، وما هو لغوي منطوق، وما هو سلوك مرئي إلى صورة تختصر وتبين وترسل رسالة هي من القوة والبيان بحيث تخلق ردات فعل في مثل قوتها أو أكبر.

إن حديثنا عن السخرية في الخطابات المتنوعة يملي ضمنيا رصدا للقوالب والعناصر الحجاجية التي تعزز قوة هذه الخطابات ، وتمهد سبل تلقيها وتقبلها اقتناعا لا تشكيكا! قد يستفز أحدَهم نفي التشكيك هنا. لكن المعرفة بالحجاج وأصول تبنيه خطابيا، ترفض خاطر التشكيك أو الرفض إذا هي انحشدت في فكرة ما أمام فكرة أخرى، وسنرى في تحليلنا لأنواع الخطابات الساخرة لغة وصورة كيف يستثمر البعد الحجاجي؛ لا في الخطابات نفسها، بل في ملابساتها المقامية كذلك، باستثمار المواقف القبلية والآنية والبعدية لصناعة هذه الخطابات، اعتمادا على مجموعة من العلاقات، جعلناها ثلاثية في الموضوع، وهي:

- ❖ علاقة الساخر بالمسخور منه.
- ❖ علاقة الساخر بجمهوره.
- ❖ علاقة الجمهور بالمسخور منه.

• السخرية الرفيعة في النكتة السياسية:

المتصفح للموقع الاجتماعي (الفيسبوك) يعثر وبشكل كثيف وواسع على صفحات لامتناهية تقوم أغلب موضوعاتها على السخرية السياسية، ويلاحظ بشكل جلي الحجم الكبير للمتفاعلين مع القضايا والأوضاع، ولاسيما بعد ثورات ما سمي بالربيع العربي، التي فتحت مجالا واسعا للنقد الحر والسخرية اللاذعة من الأحداث والسياسيين والشخصيات الاجتماعية وكل الشرائح بلا استثناء، بل شجعت بشكل صار مقصودا الآن على اختلاق أحداث ومواقف بغرض الشهرة وغيرها لجلب الانتباه وإشعال هذه التفاعلات، ولنقل ردات الفعل، بل المثير والذي نعده إيجابيا إلى مدى بعيد هو استثمار البعد الثقافي للمجتمعات والأفراد في تشجيع المتفاعلين على القراءة والبحث والمشاركة لكثير من الأقوال والمواقف الثقافية، الأدبية، السياسية، الإعلامية لتطويعها أو تحويرها لتوافق وضعا أو موقفا معينا، فلا يعرف المتلقي حينها وجه البراعة في الموقف إن كان في انتقاء الفعل الكلامي نفسه، أو في تطويعه وموضعته في موقف معين بذكاء < من الناحية الشكلية والجمالية تعتبر السخرية الرقمية مختلفة عن باقي أشكال السخرية من حيث أنها تستعمل الإمكانات الإلكترونية المتاحة، الأمر الذي أضاف للسخرية قوة تعبيرية وتأثيرية. تعتبر المابين وسائطية شرطا أساسيا لإنتاج الأثر الساخر حيث يبقى الترابط بين مختلف الوسائط هو المفعل الأساسي لبلاغة السخرية التي تعتمد على تجميع ذكي وهادف للصور والنصوص واستعمال تقنيات إلكترونية لصناعة المنشورات الساخرة >.[10] هذا الاستثمار في ذاته يعدُّ من صميم العملية الحجاجية للفعل اللغوي الساخر؛ < باعتبار السخرية ظاهرة للخطاب، ومن حيث إعادتها الأواصر مع قوة الكلمة في بعدها التواصلي، ونشدانها التأثير في مستمعيها والإقناع بطروحاتها، ومن ثمة ياتي التفكير في التوجه الإقناعي الساخر >.[11]

بعض المنشورات الفيسبوكية ذات البعد السياسي الساخر تبتعد في بناء لغتها وشكلها التواصلي عن التهجمات الساخرة الفجة، أو استعمال ما يدخل في باب السباب والإهانة والانتقاص، وذلك لأنها تتخذ طابع

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

النكتة أو الملحة؛ وهي ما أسماه "محمد العمري" بـ: **"السخرية الرفيعة"** وهي < **مسح بـ"الحرير" في الموقف نفسه الذي ينشب فيه الحيوان مخالبه، ويكشر عن أنيابه، أو يلوذ بالفرار** >.[12] هذا التعريف المكثف يلمح إلى نمط عتيد ومتزن من أنماط السخرية، لا يستطيع إتقانه إلا عارف بمقومات الفعل الساخر لغة ومضمونا وطريقة في الطرح، **"مسح بالحرير"**؛ عبارة فيها من الإغراق الدلالي الساخر ما فيها، نوع من الامتصاص أو الكظم الشديد لانفعال حارق وقوي وتحويله إلى فعل ابتسامة أو هدوء بارد على السحنة، سحنة الوجه أو اللغة. كم من ممارسي النقد السياسي والاجتماعي يتقن هذا المسح الناعم؟

هناك أسماء كثيرة ومتنوعة لشخصيات أدبية وسياسية وفكرية وفنية تستحوذ على قطاع واسع ومساحة غير محدودة من المنشورات الفيسبوكية الساخرة، هذه المنشورات التي زاوجت في فعل ذكي ومختزل بين اللغة والصورة في التحام متكامل للمعنى، وغالبا لا تكون هذه الصور مختلقة أو مبدعة؛ إذ أغلبها صور فوتوغرافية أو كاريكاتورية أو بورتريه للشخصية صاحبة القول، في فعل احترام وتقدير ضمني للقول وصاحبه، لأنه يمسح بالحرير ويمتص بذكاء فورة الموقف وتأججه بكلمات حارة باردة بليغة الأثر بعيدته، تشفي غليل قارئها وترضي غاية مستعملها. من بين نماذج هذه السخرية الرفيعة، نكت وأقوال الساخر المصري الراحل "جلال عامر"، التي صنعت الحدث الفيسبوكي الساخر إبان ثورة الشباب وإسقاط نظام الحكم، وما بعدها وما قبلها كذلك، وهو في كثير من أقواله لم يحاكم بسخريته السياسة أو الطبقة السياسية وحدها، بل كان في كل أقواله يدمج هذا مع واقع العقلية الاجتماعية والفكرية للشعب ككل أو الشعوب العربية جميعا، على اعتبار أن المشترك الفكري والتفكيري بينها كبير:

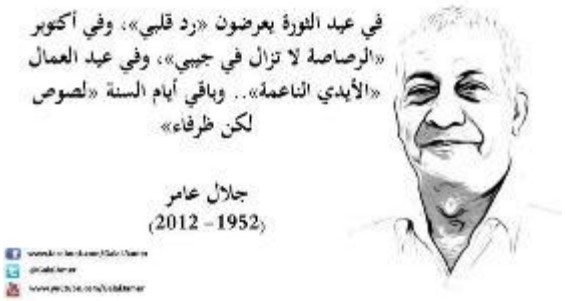

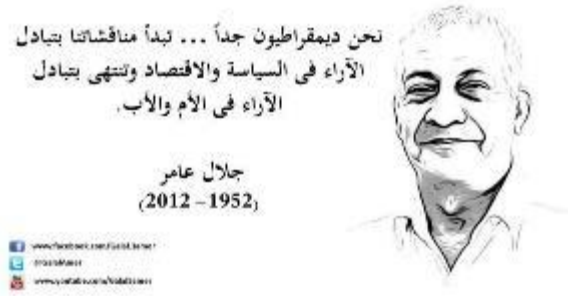

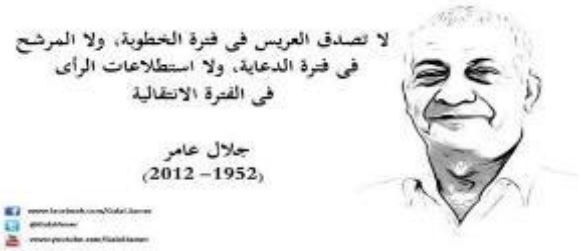

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

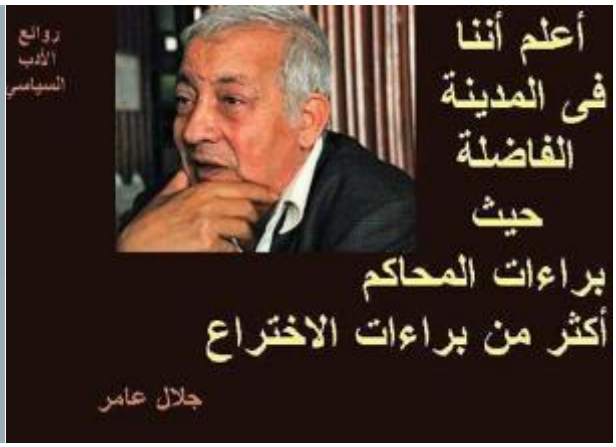

فالنكتة اللفظية <تكشف عن ذهول مؤقت في اللغة، لأنها تحاول تنظيم الأشياء وفقا لها، لا أن تنظم هي وفقًا للأسماء.[13] والرهان هنا لغوي، والسيطرة على المعنى تبدأ من تطويع اللغة وإثقالها بالحمولة الدلالية للقول؛ قول سلس مرن بعيد عن صخب الدافع وانفجاريته، فيستجيب المعنى للغة، وتتحقق إنجازيتها الساخرة بنعومة تخلصها من تشنجات الموقف الذي ولدت فيه، أو ما يتوقع أن تخلقه من مواقف وردات فعل.

كذلك هو الأمر بالنسبة لمقولات بعض الشعراء والأدباء الذين استثمروا حسهم الأدبي والوطني والاجتماعي في صياغة أشعار ومقولات ساخرة لا يصعب على متلقيها لمسه، لأن فيها إضافة إلى قوة البلاغة قوة حجاجية تستعصي على الرفض، على الأقل في البداية، لأن الأمر خاضع في الأخير لمعايير الإعجاب والتعليق والمشاركة، والتي على أساسها تتضح قوة المعنى، ومدى استيعابه، وطبيعة التفاعل معه، وإن كانت كثير من الاستجابات والتفاعلات التعليقية تخرج من المعنى العام للمقولات لتدخل في أزقة الخصوصيات العرقية والجغرافية والثقافية والدينية والسياسية، وغيرها.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

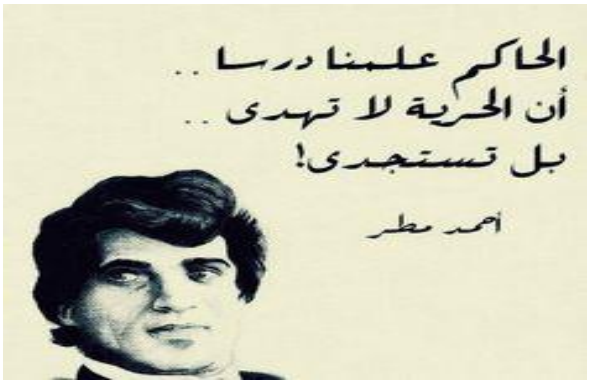

ويزداد حجم المسؤولية الدلالية للغة الساخرة إذا كانت من لدن سياسي ساخر بطبعه؛ فالمقولة الآتية لأحد دهاة السياسيين الغربيين في العصر الحديث وهو "وينستون تشرشل"، تجعل المتلقي في حالة تركيز شديد خشية الانجراف وراء الخارجي الساخر وإغفال الداخلي المغرق في التركيز والمناورة السياسية الماكرة، التي صاغت فكرة سياسية معقدة في تفاصيل لعبة الغولف.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

وبالتالي ردات الفعل والتعليقات المتفاعلة ستعكس بشكل واسع جدا درجة الاستيعاب إلى أبعد حدوده، كما تعكس عدم الاستيعاب والخروج عن المعنى المقصود، والدخول في معان أخرى وسياقات أخرى لا يقصدها صاحب المقولة ويتقصَّدها المعلق للخروج من أزمة التأويل، أو الاستجابة لمؤثر داخلي شاحن لا يجد مجالا لتفريغه إلا في هذه المتصفحات والفرص.

هذا النوع من اللغة الساخرة بمفارقاته المتنوعة > يعكس شكلا بلاغيا مضمرا لنية التحاج بصيغ متفاوتة الأثر، لانبنائها جميعا على عنصر المواراة، الشئ الذي يوحي بكون السخرية مسافة غير قابلة للتفاوض، ويدعو إلى التفكير بكيفية اشتغال البنية التواصلية الساخرة >.[14] وهي هنا قائمة على علاقة ثلاثية نفصلها في:

- **علاقة الساخر بالمسخور منه:**

> تمثل الذات الساخرة وضعا تلفظيا معقدا، لأنها من وجهة نظر أسلوبية شكل تلفظي فردي، فيما تنفي من منظور تعدد الأصوات فرضية إفراد موضوع التلفظ؛... إن الساخر وفق هذا الطرح مرآة تعدد الرؤى في ملفوظ واحد بأشكال تعبيرية مفارقة، إذ بإمكان الذات المتكلمة أن تكون غائبة عن ملفوظها أو مناقضة له، والملفوظ الساخر قد يخلو من علامات دالة عليها >.[15] هذا التناقض الذي تنبني عليه علاقة الذات الساخرة بطرحها، وقبلها بوضعها التلفظي (الفردية الأسلوبية) وانتفاء هذه الفردية أمام تعدد الأصوات، على اعتبار أن الساخر يعكس هذا التعدد أو الرؤى المتعددة المشتركة – وإن على نطاق معين- بأشكال تعبيرية مفارقة ومختلفة ومصطنعة، تخلق نقيضه (الغياب أو التناقض)؛ بغيابها عن خطابها الساخر، الذي ترسم طبيعته صيغة التواصلية الساخرة التي يرسلها، والتي قد تنطلق من:

- المألوف إلى المألوف.
- غير المألوف إلى المألوف.
- غير المتوقع إلى المتوقع ثم المألوف.
- غير المناسب إلى المناسب (بعد التطويع).

هذه المنطلقات والنتائج لا تحددها طبيعة الخطاب الساخر المتضمن خصائص المسخور منه فحسب، بل تحددها مدى قابلية هذه الصيغة للتصديق والتبني والتداول، ولعل > علاقة المسخور منه بالذات الساخرة، كعلاقة التعارض بين المعنى الظاهر والضمني، فالأول يحتويه الغموض، والثاني مبحر في عتمته، غائص في طلب جواهر المعاني >.[16] وبين المعنى الظاهر والضمني يولد المتلقون، ويصنفون، وهم بين: سذاجة موقوف فيها تفاعلهم وفهمهم على المعنى الظاهر، وبين التواطؤ الذي يهئ لهم كشف إحكام صنعة الكلام الساخر، وبذا اعتبرت السخرية مستبدة مستخفة Tyromique.[17]

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

في هذه الصورة مثلا، لا نتوقع فهما مباشرا ولا متساويا للمعنى من طرف المتلقين؛ لأن الساخر هنا بطن لغته وبناها على وجهين دلاليين؛ قريب غير مقصود وبعيد مقصود، في هجوم ثقيل ناعم على واقع المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية. وهذا الخطاب المركب هنا (النص والصورة) سيقسم بشكل مؤقت جمهور المتلقين، لكنه ينفذ بشكل عميق إلى هز صورة المسخور منه وتسخيف فعله.

- **علاقة الساخر بجمهوره:**

وهي علاقة تعاقدية، < لا تتحقق إلا باستحضار الساخر لصورة جمهوره، سواء أكان جمهورا فعليا أم متخيلا >.[18] وهو في صفحات الفيسبوك فعلي متخيل، يستحضره النص ليحوله التلقي خطابات متفاوتة القراءات والفهم والتجاوب، ويجمعه المشترك الموضوعي؛ وبصفة أدق الانطباع أو ردة الفعل، لأن هذا النوع من الخطابات الساخرة لا يكتسب جرأته وشيوعه وقوته الحجاجية الإقناعية إلا من الثقة في وجود قطاع واسع من الجمهور الذي يشاركه الثقافة والقيم الرمزية والمعتقدات، يوافقه على محتواه ويؤيده في فكرته، بل يكون هذا الخطاب الساخر أو السخرية الرفيعة هنا متنفسا لاذعا وسريع الوصول، بحيث يمكنه تحقيق نتيجة عملية على أرض الواقع.

يمكننا في هذه الحالة اعتبار هذه الخطابات الساخرة، أو خطابات السخرية الرفيعة "ثورة أيقونية" أو "حرب صور" [19] تجمع النص اللغوي إلى الصورة وقد تقزمه أو تحد مساحته لتجمع إليها تلابيب المعنى وتعتصرها في خطاب رمزي أو واقعي يختصر ما يمكن للغة أن تسترسل في سرده أو تبيينه.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

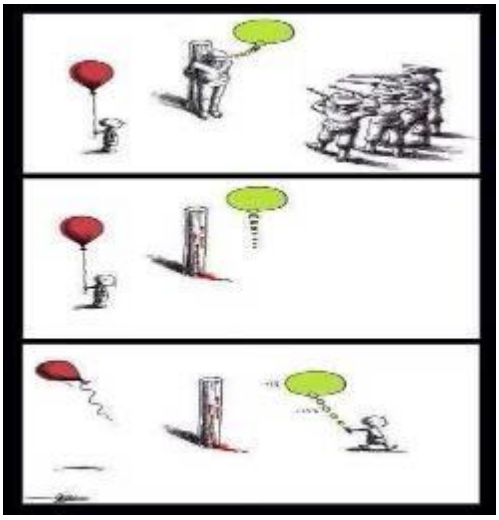

- **علاقة الجمهور بالمسخور منه:**

إن علاقة التواطؤ والاتفاق بين الجمهور والساخر تحدد المسافة بين هذا الجمهور والمسخور منه بالإبعاد والإقصاء والتهكم؛ < باعتباره حارس نمط آخر من القيم، مختلِف ومُنتَقَد من لدن الساخر وجمهوره>. [20] هذه الهجومية الضاحكة تعتبر تقنية بإبطال ردود الأفعال المحتملة من المسخور منه، كما تضعه في موقع محرج يبعث على الضحك من جهة، ويعفي الساخر والجمهور من تحمل تبعاته بإسناده إلى أطراف أخرى وأصوات مغيبة أو شاهدةعلى القول [21] .

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

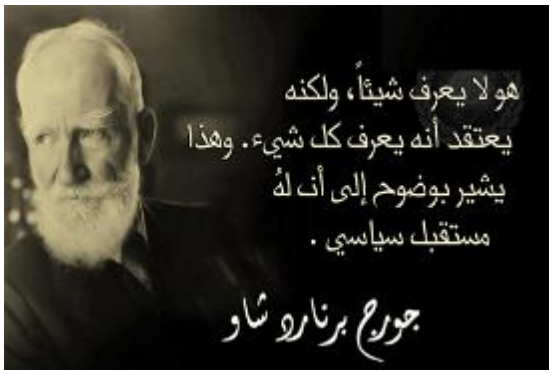

هذه الصور والأقوال أمامنا، ماهي إلا شواهد على الاتفاق المضمر بين الساخر؛ موظفا لهذه النماذج على تنوع مراتبها ومستوياتها اللغوية والفكرية، وبين الجمهور؛ هذا الجمهور المهيأ مسبقا لهذا النوع من النماذج الساخرة، أو الذي عليه أن يتكيف معها ليفهم مقاصدها ويكون في صورة تحقق قيمتها الحجاجية. لاسيما وأن موضوعاتها من صميم واقع الجمهور المعيش، بل هي مصب نقمته، وبالتالي فالمسخور منه هنا، وكيفما كان اسمه أو وصفه، فردا، أو جماعة، فئة أو مؤسسة، يتوحد أمام الفعل الساخر الناقد الناقم للساخر والجمهور معا،

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

• الخاتمة:

إن فعل السخرية في وسيط إلكتروني تفاعلي كـ: الفيسبوك، قد أسس لواقع ثقافي - نقدي، ليس بالشكل النظري المتكامل أو القائم على ثوابت مدروسة ومتوارثة، بل بشكل شمولي متسارع؛ استطاع أن يختصر واقع المجتمعات بوقائعها وثقافاتها وطوارئها، بإيجابياتها وسلبياتها في ثنائيتي الكلمة والصورة، أداتين كافيتين لبناء المواقف وهدمها، لترسيخ القناعات وزحزحة غيرها، بل لزعزعة يقين فئات كاملة بقيم وموروثات مغرقة في التجذر.

هذه الثنائية المصنوعة تحتاج في مجال كهذا معرفة واسعة لا بثقافة النص والصورة، وليس بواقع الفئات المستهدفة ومجتمعاتها وظروفها فحسب، إنما أفقها مبني على صناعة فعل مستمر، يلامس الحاجة والأزمة وموضع الألم، لكنه وبيد ساحر يحاول أن يمتصه فلا تعدو ردات الفعل أن تتجاوز هذه الشاشات مشاركة وتعليقا وإعجابا، فتتحول النصوص المقتطعة من مساحاتها الأولى الضيقة، والصور المعروفة والمصنوعة إلى ثنائيات تشكل خطابات مسكوكة تتوحد أمامها دلالات كبرى مشتركة، قد تتجزأ هذه الدلالات إلى أخرى تتفاوت والمستويات الثقافية للمتلقين، فيتحقق بهذا ليس إعادة إنتاج النصوص فقط وتكييفها، بل تهيئة أنواع أخرى من المتلقين بمؤهلات جديدة تتماشى ومستقبل التواصل في شكله الجديد.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

المراجع

[1] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق، المغرب، دط، يناير 2005، ص: 98.
[2] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 84.
[3] محمد مفضل، السخرية في الثقافة الرقمية، دراسة ثقافية للخيال النثري، للقيم الثقافية ولفلسفة اليومي على الفيسبوك، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، د م ط، د ط، 2014، ص، ص: 17، 18.
[4] محمد مفضل، السخرية في الثقافة الرقمية، ص: 39.
[5] محمد مفضل، السخرية في الثقافة الرقمية، ص: 17.
[6] محمد مفضل، السخرية في الثقافة الرقمية، ص: 27.
[7] محمد مفضل، السخرية في الثقافة الرقمية ، ص ص: 17، 18..
[8] محمد مفضل، السخرية في الثقافة الرقمية، 32.
[9] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 93.
[10] محمد مفضل، السخرية في الثقافة الرقمية، ص: 167.
[11] أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2011، ص: 30.
[12] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 100.
[13] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 102.
[14] أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص: 30.
[15] أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة ، ص: 32.
[16] أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص: 32.
[17] أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص: 32.
[18] أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص: 32.
[19] العادل خضر، في مرائي الصور مقالات في الصورة، دار سحر للنشر، تونس، دط، فيفري 2014.
[20] أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص: 33.
[21] أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص: 33.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.